الأغالبة وفتح جزر البحر المتوسط و انتقال بعض مظاهر الحضارة العربية الإسلامية إلى الغرب الأوربي

محمد صالح منصور *

يشكل موضوع هذا البحث أهمية كبيرة في دراسة تاريخ العلاقات بين الشرق و الغرب في العصور الوسطى ، ولهذا فان البحث يعالج ظاهرة تاريخية بعيدة الأهداف تركت أثارها العميقة في مجمل شعوب البحر المتوسط شمالا و جنوبا ، ودراسة هذه الأحداث مليئة بالدروس و العبر ، للاستفادة منها في تطوير العلاقات نحو أهداف تحقق السعادة و الازدهار الاقتصادي و الثقافي لإنسان هذه الأقاليم المهمة من العالم متى ما ساد السلام و الأمن و تبادل المصالح بين الشعوب .

إن حوض البحر المتوسط هو حلقة الوصل بين سكان هذه الأقاليم من أقدم العصور حتى الوقت الحاضر ، وقد كان الشريان الحيوي الذي حقق صلات سليمة و غير سليمة بين الشرق و الغرب ، وتتمثل هذه الصلات في الحروب و المصادمات الحربية لأسباب متعددة وكذلك تجسدت الصلات السليمة في التبادل الاقتصادي و بخاصة عن طريق التجارة و كذلك التبادل الثقافي و بخاصة انتقال بعض المظاهر الحضارية العربية الإسلامية لجزر البحر المتوسط و جنوب ايطاليا ومنها إلى بقية الغرب الأوروبي و أثناء الحروب الصليبية من خلال الحملات المتعددة فان الاحتكاك و الاتصال بين الجانبين ساهم في انتقال الكثير من المظاهر الاجتماعية و الثقافية بين المشاركين في الحملات الصليبي و سكان المناطق التي استهدفتها هذه الحملات .

إن تأسيس دولة الأغالبة في القيروان يعد نقطة تحول في تاريخ المغرب العربي ، الذي حقق لأول مرة استقلاله عن مركز الحضارة الإسلامية في المشرق ، حيث لم تقم بأي دور سياسي يذكر في المغرب ، بعد ولاية موسى بن نصير ، وفتح الأندلس .

وقد تأسست هذه الدولة في خلافة الخليفة العباسي هارون الرشيد الذي عين على المغرب (افريقية) إبراهيم الأغلب سنة 184 هـ بعدما مرت بفترة من الفتن و الاضطرابات التي انتشرت في البلاد وللوقوف في وجه الأدارسة من جهة أخرى .

* الأستاذ المشارك بالتاريخ الأوروبي و العلاقات بين الشرق و الغرب في العصور الوسطى
قسم التاريخ – كلية الآداب – جامعة بنغازي

ولكن انشغال الدولة العباسية بأمور المشرق قد شجع الولاة في المغرب على الاستقلال شيئا فشيئا عن الدولة العباسية ، وكان إبراهيم الأغلب من ضمن هؤلاء الولاة الذين أسسوا أسرة حاكمة في القيروان [1] وظلت تربطها بالدولة العباسية روابط الصداقة و المجاملة التي اقتضتها دبلوماسية تلك العصور وبقى شعار العباسيين السواد ، وقد تبلور استقلال افريقية و أصبح أكثر وضوحا ابتداء من ولاية زيادة الله الأغلب [2] والذي سرعان ما اخذ في الاستفادة من الميزات البحرية لولايته وكون مركزا مستقلا في البحر المتوسط ، فأراد بن الأغلب انتزاع القيروان في نطاق إسلامي .

لقد أراد الأغالبة فتح صقلية و التي لم يفلح المسلمون في الاستيلاء عليها في السابق [3] وسوف نعرض محاولات المسلمون لفتح صقلية في السابق وذلك لأهميتها من الناحية الاقتصادية و لحماية الأراضي الإسلامية من هجمات البيزنطيين .

وتعد صقلية اكبر جزر البحر المتوسط بين ساحل ايطاليا الجنوبية و ساحل افريقية وتقسم المتوسط إلى قسمين شرقي و غربي ويفسر لنا هذا الموقع كثيرا من الأحداث التاريخية التي مرت بها بلاد المغرب كنزول البيزنطيين على سواحل افريقية في مرحلة الغزوات الإسلامية الأولى على فترات متقطعة مما سبب في امتداد حركة الفتح لزمن طويل [4] وكانت صقلية من حيث موقعها الجغرافي معرضة لهجمات المسلمين من بلاد الشام و من افريقية حيث هاجمها معاوية بن أبي سفيان و إلى الشام في زمن الخليفة عثمان بن عفان مرتين عامي 650 م – 670 م مرة من سواحل الشام عندما كان واليا و الأخرى من بلاد المغرب عندما أصبح خليفة غير أن هذه الغزوات لم تكن منظمة ولم تكن قوية لهذا لم يتسن للعرب السيطرة على صقلية في تلك الفترة ، وهذا وقد تكررت الغزوات الإسلامية على صقلية في أوائل القرن الثامن الميلادي بعد سيطرة المسلمين على الأندلس ، فبعث موسى بن نصير سنة 704 م أسطولا بقيادة ابنه عبد الله لغزو صقلية فاستولى عليها بشكل مؤقت و في عام 727 م غزا العرب صقلية بقيادة صفوان ، ثم تعرضت صقلية لغزوتين من العرب في عامي 728 – 729 م بقيادة عثمان بن أبي عبيدة و المستنير بن الحجاب ، وقد استمرت محاولات العرب للسيطرة على صقلية نظرا لموقعها الاستراتيجي و الذي سبق الحديث عنه وقد بدأت الظروف تتهيأ هذه المرة من القيروان في عهد دولة الأغالبة في ولاية زيادة الله الأغلب ومما ساعد على هذا الفتح النزاع الذي كان بين احد القادة البيزنطيين ويدعى بوفميوس وبين الحاكم

[1] عبد العظيم رمضان : الصراع بين العرب و أوروبا ، دار المعارف (بدون ، تاريخ) ص 188 .
[2] الجنجاني الحبيب : القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية ، تونس ، 1969 ، ص 65 – 66 .
[3] عبد العظيم : الصراع بين العرب و أوروبا ، ص 187 .
[4] سالم السيد (وآخرون) : تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب و الأندلس ، دار النهضة العربية ، بيروت 1969 ، ص 95 .

لصقلية فذهب يستعين بالأغالبة على خصومه في الجزيرة و وعدهم في مقالب ذلك بان يمتلكوا صقلية [1] ، وقد شجع هذا الحدث الأغالبة على فتح صقلية التي لم يفلح المسلمون من قبل في فتحها ، وقد بدا زيادة الله الأغلب بالتجهيز لهذه الحملة حيث عقد مجلس من الفقهاء لاستفتائهم في شان نقض الهدنة التي كانت بين المسلمين و الروم ، فأشار عليه الفقيه أسد بن فرات بجواز الغزو حيث قال " بالرسل هادناهم و بالرسل نجعلهم ناقضين " و استدل بقوله تعالى : " فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وانتم الأعلون " صدق الله العظيم ، ويتضح من استفتاء زيادة الله للفقهاء ترغيب المسلمين في الفتح و إكساب الحملة طابع الجهاد في سبيل الله ، وقد ولي زيادة الله الأغلب إمرة الجيش لأسد بن فرات مع الاحتفاظ بالقضاء حيث لم تجمع القضاء من قبل لأحد في افريقية إلا لأسد بن فرات [2] وقد خرج أسد بن فرات من القيروان في حشود قوامها عشرة ألاف من الرجالة ، وسبعمائة من الفرسان [3] ، وقد تحرك الأسطول من مدين سوسة في يوم السبت 15 من شهر ربيع الأول سنة 212 هـ - 19 يونيو 827 ، وكان الجيش يتكون من سبعين مركبة وقيل مائة بالإضافة إلى مراكب القائد البيزنطي [4] .

فوصلت الأساطيل إلى مازر بعد ثلاثة أيام من الإبحار من سوسة ، وتعد مازر اقرب مدن صقلية إلى سوسة ، ولم يجد الجيش فيها مقاومة تذكر ، وقد طلب ابن الفرات من القائد البيزنطي الانفصال عنه لعدم ثقته به وطلب منه أن يضع علامة تميز جنده الذين التقى بهم في مازر عن الجيش البيزنطي وقد توجه الجيش الإسلامي نحو سهل بلاطة مارا بقلعة بلوط ، وقرى ، الرفش ، وقلعة العرب ، وقلعة الطواويس ثم وصل جيش قوامه 150 ألف مقاتل وهذا الرقم مبالغا فيه مقارنة بجيش ابن الفرات الذي كان النصر حليفه و لكونه على ارض لم يتعود عليها جنوده لنقول أن جيش بلاطة يفوق الجيش الإسلامي ، وقد انسحب بلاطة بعد هزيمته إلى قصريانة ، بجنوب ايطاليا فقتل بها ، وبعد هذا الانتصار الحاسم ، استعمل ابن الفرات على مارز ابازكي الكناني [5] و التي قامت بدور رأس الجسر ، وكانت بمثابة القاعدة القتالية للجيش الإسلامي ، و اتجه الجيش الإسلامي إلى سرقوسة عاصمة صقلية ، ولا يبدو انه لاقى مقاومة في طريقه أثناء تقدمه ، ويقول ابن الأثير : أن الجيش الإسلامي قد تمكن من الاستيلاء على عدة حصون وهو في طريقه إلى سرقوسة [6] وقد قابل ابن الفرات بعض بطارقة سرقوسة فسألوه الأمان خديعة ومكرا ، ولكن ابن الفرات كان

1 الطيبي ، أمين توفيق : دراسات و بحوث في تاريخ المغرب و الأندلس ، تونس ، 1989 ، ص 42 .

2 السيد : تاريخ البحرية الإسلامية ، ص : 104 – 105 حسان عباس : العرب في صقلية ، ص 32 ، 31 .

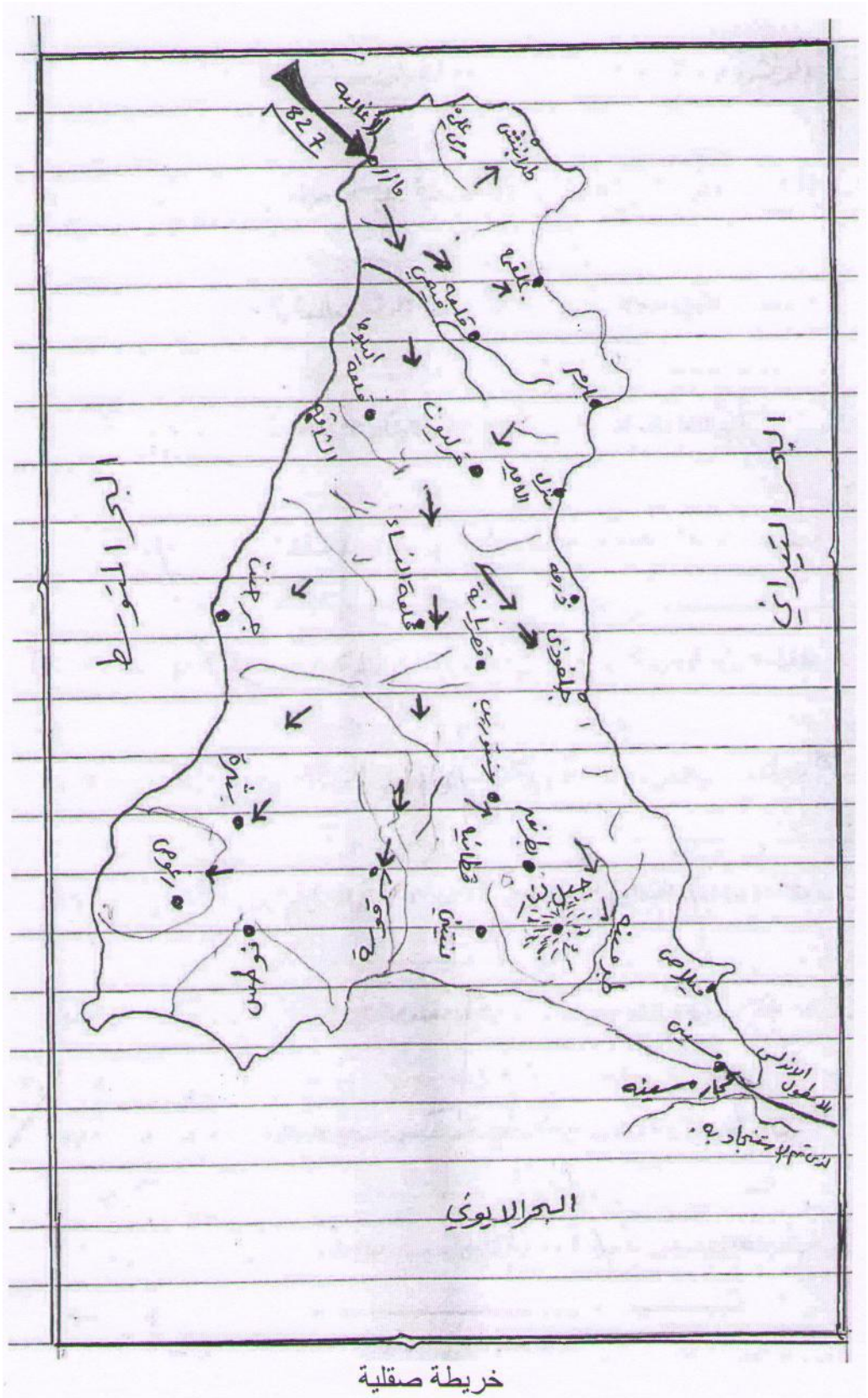
3 ابن عذارى ، أبو العباس احمد بن محمد : البيان المغرب في أخبار الأندلس ، ج1 ، ص 212 .

4 السيد : تاريخ البحرية الإسلامية ، ص 106 .

5 السيد : تاريخ البحرية الإسلامية ، ص 106 – 107 .

6 ابن الأثير : أبو الحسن علي بن محمد : الكامل في التاريخ ، القاهرة ، 1303 ، ج5 ، ص 187 .

يحسن التعامل مع عدوه فلم يستجيب لمطالبهم ، ولعل الخطأ الذي ارتكبه هو التوقف عن التقدم ، الأمر الذي مكن أهل سرقوسة من تنظيم صفوفهم ، و التصدي للجيش الإسلامي و طرده من المدينة .



خريطة صقلية

فعاود ابن الفرات الزحف عليها مرة أخرى ، وغنم منها غنائم كثيرة ، وقد احكم ابن الفرات حصاره على سرقوسة من البحر و البر ، وفي تلك الأثناء انضم بوفميوس إلى أهالي سرقوسة ، وحرضهم على القتال و التصدي للجيش الإسلامي فلم يخب ظن ابن فرات حين انفصل عنه ، وقد وصلت إمدادات من افريقية [1] وتضخمت تلك الإمدادات بمن انضم إليها من المتطوعين من الأندلسيين [2] فكان لهذه الإمدادات الأثر الكبير في رفع معنويات الجيش الإسلامي و الذي يحاصر سرقوسة ، وقد وجه ابن الفرات جيشا إلى بلرم و قد احكم الجيش الإسلامي الحصار عليها وأثناء حصارهم لها وصلت إلى بلرم إمدادات من بيزنطة و البندقية لمحاولة طرد المسلمين من بلرم فتحصن جيش ابن الفرات وراء خندق واسع وحفروا أمامه حفر كثيرة فانطلت الحيلة على البيزنطيين رغم أنهم كانوا يستعينون عادة بهذه الوسيلة لتحطيم هجمات الخيالة ، فلم يصد هجومهم فقط بل تكبدوا خسائر كبيرة ، و أشعلت النار في الأسطول ، فاعتد ابن الفرات بهذا النصر وشدد الحصار على سرقوسة [3] وقد طلبت سلطة المدينة التفاوض مع ابن الفرات ، بعدما أخفقوا في فك الحصار ، وأبدى ابن الفرات في البداية موافقته على هذا الطلب ، ولكن الجيش الإسلامي انتشى بالنصر فأراد مواصلة القتال ، وفي هذه الآونة حل وباء شديد هلك بسببه عدد كبير من الجيش الإسلامي ومن بينهم القاضي أسد بن فرات الذي توفي في شعبان سنة 213 هـ وقيل في رجب [4] وتولى قيادة الجيش محمد بن أبى الجواري ، ومما لا شك فيه أن تلك المحنة التي أصابت الجيش الإسلامي ، قد أضعفت من قدرته على المقاومة وهبطت معنويات الجند ، حتى فكروا في العود إلى افريقية لولا أن اعترضهم أسطول بيزنطي و أخر من البندقية عند المرسى الكبير ولما يئسوا من العودة إلى افريقية ، عادوا أدراجهم ، فلما تمكنوا من النفاذ عبر أسطول العدو فيحتمل كثيرا أن مغامرة فتح صقلية لن يكن لها ما بعدها ، وبعد هذه المحنة استعاد المسلمون قواهم ثم بادروا بالقتال من جديد و استولوا عل مدينة اغريجانت [5] ثم هاجموا قصريانة الواقعة إلى الشمال الغربي من صقلية ، فقد تمكنوا من حصارها رغم إرسال بيزنطة إمدادات جديدة في تلك الآونة إلى الجزيرة بقيادة تيودوت الذي زحف بجيوش كثيفة من الأرمن ، ولكنه هزم على أسوار قصريانة من قبل المسلمون .

وقد تمكن تيودوت من معاودة الزحف على المسلمين في قصريانة ، وتمكن من هزيمة الجيش الإسلامي وقد قتل ما يقارب عن ألف جندي حسب ما ذكره بعض المؤرخين .

---

[1] السيد عبد العزيز : تاريخ البحرية الإسلامية ، ص 107 – ص 108 .
[2] ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج5 ، ص 187 .
[3] ابن عذارى : البيان المغرب في أخبار الأندلس و الغرب ، ج1 ، ص 103 .
[4] السيد عبد العزيز : تاريخ البحرية الإسلامية ، ص 108 .
[5] محمد الطالبي : الدولة الاغالبية ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت 1985 ، ص 469 .

ونرى من تتبعنا لسير الحملة الإسلامية على صقلية لم تتمكن من النصر الحاسم في البداية وذلك يرجع إلى تفشي الأمراض في صفوف الجيش الإسلامي من ناحية ، وشدة المقاومة البيزنطية من ناحية أخرى [1] ، وقد تحرج موقف المسلمين بعد الخسائر التي لحقت بهم فعزموا على التسلل من معسكرهم فاقبل عليهم البيزنطيون من كل ناحية ، وقتلوا منهم مجموعات عظيمة ، وقد فر من نجا مدينة مسينا ، ولاحقهم فيها البيزنطيون ، وحاصروهم في تلك المدينة .

وفي تلك اللحظات الحرجة التي يتوقف عليها مصير الجيش الإسلامي حدث أمر لم يكن في الحسبان إذ وصل إلى مياه صقلية في سنة 214 هـ أسطولا أندلسي بقصد الغزو البحري تحت قيادة أصبغ بن وكيل الهواري ، وما كادت أنباء وصول الأندلسيين تصل إلى المحاصرين في مسينا حتى أرسلوا إليهم رسلا يطلبون منهم مساعدتهم في فك الحصار عنهم ، فلم يتردد الأندلسيون عن ذلك فقد تمكنوا من فك الحصار والاستيلاء على مسينا ، بعدما هزموا القائد البيزنطي تيودوت في جمادى الأخر سنة 215 هـ ، ثم واصل المسلمون الزحف إلى غليانة ، وغنموا ما فيها ، وفي تلك الآونة تفشى المرض في الجيش الإسلامي مرة أخرى منهم أعداد كبيرة ، ووجد المسلمون أنفسهم مرغمين على مقاتلهم ، واشتبكوا معهم في معركة عنيفة دارت فيها المعركة على البيزنطيين ، وقتل فيها قائدهم .

ثم تولى قيادة الجيش الأغلبي بعد عودة الأندلسيين أبو فهر محمد بن عبد الله ، و اتخذ مدينة بلرم بعدما استولى عليها مقرا له لما لها من أهمية ، ومنها شن الغارات على قصريانة في سنة 219 – 220 هـ ، ثم سير حملة بقيادة محمد بن سالم إلى طبرمين ، وغنموا منها غنائم كثيرة ، وقد تمرد عليه الجند فقتلوه فولى زيادة الله مكانه الفضل بن يعقوب ، وقد تمكن المسلمون تحت قيادته من هزيمة البيزنطيين في سرقوسة .

وقد ولى زيادة الله على صقلية أبا الأغلب إبراهيم في سبتمبر سنة 886 م فوصلها في أسطوله و أحرز بعد وصوله إلى صقلية انتصارات بحرية عديدة ثم اتجه نحو قوصرة فظفر فيها بغنائم لا حصر لها ، و قد اتجه أبو الأغلب نحو المناطق التي لم يستكمل فتحها ، وحقق فيها انتصارات عظيمة ، وقد اتجه أسطول إسلامي بقيادة الفضل بن يعقوب نحو الجزر الايولية المجاور ، فاستولى على عدد من الحصون في شمال صقلية [2] وظل أبو الأغلب يبعث السرايا إلى مدن صقلية التي لم يتم فتحها في السابق ، وفي أثناء حصارهم جلفوذي ، وصلت إمدادات بيزنطية إلى صقلية في

[1] عبد العظيم رمضان : الصراع بين العرب و أوروبا ، ص 190 .
[2] الطالبي : الدولة الأغلبية ، ص 448 – 449 .

الوقت الذي وصلت أنباء بوفاة الأمير الأغلب زيادة الله في رجب سنة 223 هـ فدب الوهن في نفوس الجيش الإسلامي مما اضطر لرفع الحصار على جلفوذي ولكنهم تمالكوا أنفسهم ، واستعادوا حماسهم في قتال الروم ، وتوالت انتصارات الجيش الإسلامي في صقلية ، وقد افتتحوا إقليم قلورية ، وقد استولوا على المدن المهمة في أقصى الشمال الشرقي لصقلية .

وقد ولي المسلمون العباس بن الفضل ، بع وفاة أبى الأغلب إبراهيم وتعتبر ولايته عهد جديد في الفتح الإسلامي لصقلية كما تعتبر ولايته أعظم الفترات التي وضحت فيها السيطرة الإسلامية على البحر المتوسط ، وفي ولايته قام أعظم الفترات التي وضحت فيها السيطرة الإسلامية على البحر المتوسط ، وفي ولايته قام المسلمون بفتوحات كثيرة وقد استولوا على قلعة أبى ثور كما أغاروا على قطانيه ، ونوطس، ورغوس ، وفتحوا بثير في سنة 238 هـ على اثر ذلك سير البيزنطيون أسطولا من 300 شلندي إلى سرقوسة تحت قيادة البطريق قسطنطين كندومتش ، فقد هزمهم جيش أبى العباس وغنموا منهم مائة شلندي ، وقد وصل الجيش الإسلامي إلى انكبرذه وقد توالي على صقلية عدد من الولاة بعد وفاة أبى العباس سنة 247 هـ ، وخلال حكمهم توالت الانتصارات الإسلامية في الجزيرة .

وقد قدم الأمير الأغلبي إبراهيم بن احمد بأسطوله إلى صقلية في 17 ربيع الأول سنة 289 ، فافتتح مقيش ، ورمطة ، وقد توفي في ذي القعدة سنة 289 هـ .

ولم يبق لاستكمال فتح صقلية سوى مدينة طرمين ، وقد سقطت في سنة 296 ، وهكذا افتتح المسلمون جميع مدن وقلاع صقلية بعد حروب دامت 80 سنة [1] ومن اللافت للنظر نرى إن المسلمين لم يستطيعوا فتح صقلية بسهولة في حين تم فتح الأندلس في حوالي ثلاث سنوات ، واستغرق فتح صقلية ما يقارب من الثمانين عاما و لم تتم السيطرة عليها نهائيا إلا في عام 902 و السبب في تفاوت السيطرة على الأندلس عنها في صقلية أن العرب في الأندلس ، لم يجدوا أمامهم إلا حكما محليا محدود لا يعتمد إلا على قواه الذاتية المحلية ، بينما واجهتهم في صقلية إمبراطورية قوية مدها الشرق و الغرب بقواهما كما كانت إمبراطورية بحرية تمتلك الأساطيل البحرية و القوات البرية الكبرى .

[1] السيد عبد العزيز : تاريخ البحرية الإسلامية ، ص 118 – 119 .

غير انه من اللافت للنظر أيضا و هو التصميم و الإرادة العربية الإسلامية و التي تمثلت في رفض التراجع عن الهدف ، و العمل على تحقيقه ، ولو بعد ثمانين عاما [1] .

ومما يذكر أن سكان صقلية بعد الفتح الإسلامي تحسنت أحوالهم ، وأصبحت أحسن من أحوال إخوانهم في جنوب ايطاليا ، ولم يفرض عليهم كذميين ، سوى دفع الجزية ، وقد ازداد عدد المسلمين نظرا لتدفق الأفارقة ولاعتناق الكثير من سكان الجزيرة الإسلام ، ويذكر ابن حوقل ابن بلرم وحدها تضم نيفا وثلاثمائة مسجد .

وإجمالا فان فترة السيادة العربية الإسلامية على صقلية تميزت بالتسامح الديني ، و الارتقاء الحضاري ، كما تميزت بالازدهار الزراعي و النشاط التجاري ، وبخاصة مع أفريقيا ومصر ، وطالما اعتبرت صقلية ، شانها في ذلك شان الأندلس ثغرا من ثغور المسلمين على حدود الروم ، و الفرنجة [2] .

فتح مالطة :

تعتبر مالطة أهم جزر الأرخبيل المالطي باعتبارها اكبر جزره بالإضافة إلى كونها جزيرة عامرة بالخيرات ، وحسنة الموقع حتى أنها اعتبرت هي و صقلية من المعالم العامة في التاريخ البحري الإسلامي ، ومفتاح حوض البحر المتوسط الأوسط ، و الغربي ، وقد عرف المسلمون بفضل افتتاحهم لهاتين الجزيرتين ، كيف يهددون ايطاليا كلها ، ويسودون البحر الادرياتي .

قد تم افتتاح الأغالبة لمالطة في سنة 255هـ في إمارة أبى الغرانيق محمد بن أبي إبراهيم ، وبفتحها تأكدت السيطرة الكاملة على المضايق الواقعة بين صقلية و افريقية ، وقد حاول البيزنطيون استردادها و حاصروها بأساطيلهم ، وقد سير إليها خفاجة بن سفيان جيشا في سنة 256هـ ، اجبر البيزنطيين على تركها .

وقد انشأ فيها الأغالبة دار لصناعة السفن ، وعلى هذا النحو أصبحت قاعدة بحرية مهمة في البحر المتوسط ، وقد حاول الأغالبة فتح سردينية ، و التي لم تفلح المحاولات الإسلامية لفتحها ، ولما لها من أهمية ، ولم يكتب لها الفتح إلا سنة 324هـ في عهد الفاطميين أثناء خلافة المنصور القائم [3] .

---

[1] حسان حلاق : العلاقات الحضارية بين الشرق و الغرب في العصور الوسطى ، ص 113 – 114 .
[2] محمد الطيبي : دراسات وبحوث في تاريخ المغرب و الأندلس ، ص 43 .
[3] الطيبي : دراسات وبحوث في تاريخ المغرب و الاندلس ، ص 121 – 123 .

محاولة الأغالبة للتوسع في جنوب ايطاليا : -

كانت معظم ايطاليا الجنوبية خاضعة لأمراء بنفنت اللومبارديين في حين قامت في جزء منها جمهوريات ايطالية صغيرة وهي نابل ، جاتيا ، وسورتنو ، وملف [1] ، وكانت هذه المدن تابعة اسميا لإمبراطورية البيزنطية ، ولكنها كانت بالفعل مستقلة عنها .

ولما كانت هذه الجمهوريات الصغيرة ، لا تتوقع أن تقدم لها تقدم لها الدول المسيحية أي مساعدة ، فقد عمدت للتحالف مع مسلمي صقلية عام 830 م ، وقد دام هذا التحالف أكثر من خمسين عاما رغم لعنات الكنيسة ، واحتجاجاتها .

وقد لبى الأمير الأغلبي إبراهيم والي صقلية ، نداء أهل نابل فأرسل إليهم أسطولا لم ساعدتهم ، عندما حاصرهم أمير بنفنت اللومباردي سيكاردوس ، وكانت هذه المساعدة ذات تأثير فعال بالنسبة لمسلمي صقلية لأنها أضعفت قوة الأسطول البيزنطي وفعاليته في البحر التيراني ، ومن صقلية اجتاحت القوات الإسلامية في الفترة ما بين 222 – 227 هـ عبر مضيق مسيني ولاية ما جنا جراتسيا القديمة ، وشملت غاراتهم البحر التيراني ، و الادرياتي فتغلبوا على ولايتي أبوليا ، وقلورية ، كما استولوا على بنفنت ، وطارنت الواقعة على مدخل البحر الادرياتي ، وبلغت غزواتهم حتى ساحل دلماشيا ، ولم يستطع البنادقة الذين حرصوا على تامين تجارتهم ، وان يتصدوا لهذا السيل المدمر من الغارات البحرية الإسلامية ، وعندما حاولوا ذلك تعرض أسطولهم في سنة 224هـ لهزيمة قاسية على أيدي البحارة الأغالبة ، وفي خليج طارنت ، وقد تمكنت القوات الإسلامية من الاستيلاء على مزينو ، وهي ضمن أملاك البابوية وفي سنة 846 نزلت قوات إسلامية على الساحل الغربي لايطاليا ، وأغارت على ضواحي روما وتعرضت كنيستا القديسين بطرس وبولس خارج الأسوار للتخريب و التدمير ، ولولا التحصينات المنيعة لكانت روما قد سقطت في أيدي المسلمين ، وقد استنجد البابا بمدن كمبانيا المتحالفة ، وقد حشدت الأساطيل المتحالفة لمواجهة الأسطول الإسلامي ، ولكن قبل أن تصل سفن المسلمين تعرضت لعاصفة ، أغرقت عدد كبير منها ، ووقع في اسر المتحالفين عدد كبير من الجنود المسلمين اقتيدوا إلى روما ، وألزموا بالعمل في بناء مدينة الفاتيكان [2] .

[1] ابن خلدون : ابوزيد عبد الرحمن بن محمد : المقدمة ج2 ، ص 630 .
[2] السيد عبد العزيز : تاريخ البحرية الإسلامية ، ص 131 – 134 .

وقد استأنف المسلمون هجماتهم على جنوب ايطاليا من جديد عندما قرر لويس الثاني أن يقوم بمحاربة المسلمين في بارة الذين كانوا يجتاحون وسط ايطاليا وجنوبها ، وقد اخفق في حصارها ، واستطاع الملك الكارولنجي احد أحفاد شرلمان الاستيلاء على بارة سنة 876م ، وقد احدث سقوط بارة دويا هائلا ورد فعل شديد من المسلمين فأبحر الأسطول من طارنت ، وهاجم ميناء كوماتشو الواقع على مصب نهر ألبو ، و أحرقت الميناء ، وكانت هذه الغزوة أخر غزوات المسلمين على مدن شمالي الادرياتي .

وقد هاجم المسلمون روما سنة 256هـ واضطر البابا حنا الثامن إلى مفاوضة المسلمين في الصلح ، و الجلاء مقابل جزية سنوية تقدر بخمسة وعشرون ألف مثقال من الفضة [1] ولم يخف الضغط الإسلامي على سواحل ايطاليا الجنوبية و الغربية إلا منذ سنة 880م عندما رابط أسطول بيزنطي في مياه صقلية بالقرب من ثرمة الواقعة شرق بلرم ، ومع ذلك فقد نجح المسلمون في إنشاء إمارة إسلامية في سنة 882م عند " ما منت جارليا نود " وهي إمارة كانت تشكل خطراً كبيراً على الأملاك البابوية .

ووصلت سرايا المسلمين إلى الأرض الكبيرة غير أن وفاة الأمير إبراهيم بن احمد أنقذت جنوب ايطاليا حتماً من غزو وشيك كان الأمير الأغلبي قد شرع فيه [2] .

ويربط بعض المؤرخين غزو الأغالبة لروما بغزوة النورمانديين للأندلس الغربية و الشرقية وما فعلوه بها من دمار ونهب .

وان الدور الذي قام به الأغالبة بغض النظر عن دوافعه يعد مظهر من مظاهر العلاقات بين الشرق و الغرب [3] .

[1] السيد عبد العزيز : تاريخ البحرية الإسلامية ، ص 134 – 135 .
[2] السيد عبد العزيز : تاريخ البحرية الإسلامية ، ص 134 – 135 .
[3] عبد العظيم رمضان : الصراع بين العرب و أوروبا ، ص 194 .

الجهد الحضاري الذي قام به العرب المسلمون لأوروبا عن طريق صقلية

تعد صقلية المعبر الثاني الذي انتقلت منه علوم العرب إلى أوروبا ، حيث صار للثقافة العربية الإسلامية شان كبير ، ذلك بعد أن ثبتوا أقدامهم في صقلية في القرن التاسع الميلادي ، فاهتموا بالوسائل الزراعية ، وحفروا القنوات كما ادخلوا زراعة القطن ، وقصب السكر[1] و الدردار [2] و الزيتون [3] وأشجار النارنج ، و الليمون ، و التي لم تعرف في صقلية من قبل ، و انتقلت منها إلى أوروبا ، وهي من أهم صادرات صقلية اليوم [4] .

لقد تقدمت الصناعة بفضل العرب ، واستغل عرب صقلية ثرواتها الطبيعية ، و استخرجوا منها بأساليب فنية الفضة – الحديد – الكبريت – النحاس – الرخام – الجرانيت [5] .

كما كان للعرب الأثر الواضح في فن المنسوجات ، فقد كان للمنسوجات الإسلامية مكانة كبيرة لدى الأوربيين في العصور الوسطى ، إذ أثارت في نفوسهم دهشة عظيمة عندما تأملوها ، وقارنوا بينها وبين ما كانت تخرج مناسجهم ، وخرجوا من هذه المقارنة يتساءلون عن مواضع السحر في هذه الأقمشة ، وقد اقبلوا عليها إقبالاً شديداً وسموها في لغتهم بأسمائها العربية مثل (التابس) وهو نوع من الحرير عرف بهذا الاسم ، و اخذ عن (العتابية) احد محلات بغداد القديمة التي اندثرت ، و كان تفضيل الناس لهذه المنسوجات عظيما ، الأمر الذي حمل صناع النسيج الأوربيين على تقليدها في مصانعهم ، وتسميتها بأسمائها الأصلية ، وقد انتقل فن هذه الصناعة إلى أوروبا عن طريق صقلية [6] .

ومن صقلية أيضا وصلت أساليب تربية دودة القز ، وصناعة المنسوجات الحريرية ومنها انتقلت إلى ايطاليا [7] .

ويمكننا اعتبار صناعة الورق التي أخذها العرب من بلاد الصين الموطن الأول لاختراعه من أهم الانجازات التي ساهم بها العرب في دفع عجلة التطور الحضاري و الثقافي ، خطوات واسعة إلى الأمام ليس في الشرق فحسب بل في الغرب أيضا إذ من المعلوم أن أوروبا

---

[1] رشيد الجميلي : الحضارة العربية الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوروبية ، منشورات جامعة قاريونس ، بدون تاريخ ، ص 221 .
[2] الدردار : شجر عظيم له زهر اصفر وورق شائك وثمر كقرون الدفلي .
[3] غوستاف لوبون : حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، 1948 ، ص 380 .
[4] أمين توفيق الطيبي : دراسات في تاريخ صقلية الإسلامية ، دار الكتب الوطنية ، بنغازي 1990 ، ص 124 .
[5] غوستاف لوبون : حضارة العرب ، ص 380 .
[6] رشيد الجميلي : الحضارة العربية الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوروبية ، ص 198 .
[7] الطيبي : دراسات في تاريخ صقلية الإسلامية ، ص 124 .

عرفت صناعة الورق عن طريق العرب ، ولولاهم ما عرفت أوروبا عصرا مثل الذي سمي في التاريخ بعصر النهضة [1] وقد انتقلت صناعة الورق إلى أوروبا عن طريق صقلية حيث أقيم في بلرم واحد من أول مصانع الورق [2] .

أما من ناحية المعمارية لم يبق من المباني الإسلامية في صقلية سوى عدد قليل ، من أشهرها قصر العزيزية ، قصر القبة القائمان بالقرب من بلرم و اللذان ثبت بهما انه لم يكن من المبالغة ما رواه المؤرخون عن فخامة مباني في صقلية وعما زينت به من رخام ثمين وفسيفساء [3] .

وللعرب تأثير في فن العمارة الأوربية فقد اقتبست أوروبا من العرب الأقواس الغوطية التي استعملها العرب حقا في صقلية و ايطاليا منذ القرن الرابع الهجري ، العاشر الميلادي ، وعلى الرغم من اخذ الغرب في القرون الوسطى أصول فن عمارته من العرب فانه لما كان لشعوب الغرب احتياجات وأذواق تختلف عن احتياجات و أذواق الشرق ، ولما كانت بيئات الغرب متباينة لبيئات الشرق ، فان الغرب مدين للمسلمين باستخدام الزخارف الهندسية ، و الواقع أن المسلمين كانوا مصدرا لكثير مما وصل إلى الغرب من علوم الهندسة المعمارية [4] .

إن إسهام العرب في تاريخ صقلية و حضارتها نستدله من أثرهم الحضاري الكبير في الفترة النورمانية ، فالنورمان اعتمدوا اعتماداً كبيراً على مهارة العرب الصناعية و الحرفية و على تقاليدهم الإدارية و هذا الاعتراف بالماضي دليلاً قاطع على وجود ووفرة ما قدمه العرب في الفترة التي سبقت مجئ النورمان و إلى اليوم ومن الأمثلة الدالة على تأثير العرب في صقلية وجود مئات المفردات و التعابير العربية إلى الآن [5] .

أما من الناحية الثقافية .. فتعد الرياضيات من أهم العلوم التي نفذت إلى أوروبا عن طريق صقلية من رائدي الترجمة من العربية إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر للميلاد (اويلارو) الذي زار صقلية و المشرق فكانت الخدمات التي أسداها في مجال الرياضيات خدمات بارزة ، فقد ترجم إلى اللاتينية كتاب الحساب أو العداد للخوارزمي ، وهو كتاب يقوم على علم الجبر العربي ، وقد أصبح معلما من معالم العلوم الرياضية في أوروبا .

---

[1] الجميلي : الحضارة العربية و الإسلامية ، ص 194 .
[2] الطيبي : دراسات في تاريخ صقلية الإسلامية ، ص 128 .
[3] لوبون : حضارة العرب ، ص 381 وكذلك هونكه ريفريد : شمس العرب تسطع على الغرب ، ترجمة فؤاد حسنين علي ، دار النهضة العربية ، القاهرة بدون تاريخ ، ص 412 .
[4] الجميلي : الحضارة العربية و الإسلامية ، ص 210 .
[5] الطيبي : دراسات في تاريخ صقلية الإسلامية ، ص 119 .

كما نقل ايلارو كتاب الأصول في الهندسة لإقليدس من العربية إلى اللاتينية وتم إدخال الأرقام العربية إلى أوروبا على يد ليناردوفيبوتاشي من مدينة بيزة الايطالية .

أما علوم الفلك و التنجيم فهي أكثر العلوم في العصور الوسطى ، ومن أهم ما وصلنا من العالم القديم في الفلك و الرياضيات كتاب المجسطي لبطليموس ، وهو طليعة مدارس الطب بأوروبا و الذي عرف باسمه العربي ، وقد أنجزت أول ترجمة لهذا الكتاب من العربية إلى اللاتينية في صقلية عام 1163م [1] .

لقد بدا التأثير العربي يتسرب إلى الحياة اللاتينية في العصور الوسطى من جزيرة صقلية في عهد رجار الثاني وعهد حفيده فردريك الثاني ، والتي وصف تاريخها بأنه قصة مصغرة للحضارة الأوربية ففيها التقت حضارات القرون الوسطى و أهمها اليونانية و العربية و اللاتينية .

ومع أن صقلية لم تكن المعبر الوحيد الذي انساب منه علوم العرب و اليونان إلى الغرب إلا انه لم يحدث في مكان آخر غير (صقلية) أن قامت الحضارات اليونانية و العربية و اللاتينية جنبا إلى جنب في سلم و تسامح .

وقد استمر التقليد العلمي العربي في بلرم ، و كان النورمان الوارث المباشر لحضارة صقلية العربية ، فكان لعلماء صقلية مكانة مرموقة في تاريخ العلوم الأوربية .

لقد كانت اللغة العربية لغة العلم دون سواها في العصر الوسيط ، بسبب تفشي الجهل في أوروبا آنذاك ، لذلك كان الأوربيون منذ مطلع القرن الثاني عشر الميلادي يتوجهون إلى صقلية أو الأندلس للتعرف على أسرار الكون و علومه ، فصقلية إذا كانت تحظى بمزايا كبرى لأنها ثقافياً ما تزال جزءاً من العالم العربي الإسلامي .

كان للحضارة العربية الإسلامية في صقلية الأثر على اهتمام فردريك الثاني منذ صباه بالعلوم و على نزعته المتفتحة وحبه للاطلاع و التقصي ، و كان فردريك على اتصال شخصي أو بالمكاتبة بالعلماء العرب البارزين في الرياضيات و الفلك و المناظرة و الفلسفة .

[1] الطيبي : دراسات في تاريخ صقلية الإسلامية ، ص 135 .

كما استعان روجر بالعرب في جيشه ، حيث اعتمد عليهم في صناعة المنجنيق و الأبراج المتحركة ، وزودوه بالأسلحة و السهام المسمومة ليستعملها جنده في حروبه في شبه الجزيرة الايطالية [1] .

كما استفاد فردريك كثيراً من الأنظمة الإدارية الإسلامية فاقتبس قواعد الحكم و الإدارة و الأنظمة المالية و الضرائبية ، مما خفف كثير من أعباء وضع مملكته المالي و الإداري ، وقد فرض الضرائب ، كضريبة الرأس على اليهود و المسلمين و التي يقابلها في النظام الإسلامي الزكاة بالأنظمة المالية الإسلامية ، وقد انتقلت هذه المؤثرات بواسطة النورمان لمختلف أنحاء أوروبا .

ومن أهم مظاهر التبادل الحضاري و الثقافي ومدى استفادة صقلية من الحضارة العربية في عهد فردريك الكتاب العربي المعروف باسم " المسائل العقلية " و هي المسائل التي وجهها فردريك إلى علماء المسلمين ، فأجابه عليها الفيلسوف الأندلسي ابن سبعين بأمر الخليفة الرشيد خليفة الموحدين حتى أن فردريك الثاني في فترة الحروب الصليبية استرفق معه العلامة بن الجوزي الصقلي ليواصل تدريسه في علم الجدل ، كما سبق أن استفاد من احد مبعوثي الكامل و هو الشاعر الفيلسوف صلاح الدين الاربلي [2] .

ويقول المستشرق الكبير أماري انه لو زادت معرفتنا بالشعر العربي في صقلية لأصبح من المحتمل أن نكشف عن صلات وثيقة بينه وبين الشعر الايطالي القديم ، الذي نشا في أواخر العصور الوسطى ، كذلك يقول أن الباعث على ممارسة الشعر باللغة العامية في صقلية و هو علم أهلها بأخبار العرب و شعرائهم وما كانوا يلقونه من تشجيع من الأمراء المسلمين ، ويؤيد هذا الرأي أن الشعر الشعبي المبكر في ايطاليا يتفق في أوزانه مع الشعر الشعبي في صقلية و اسبانيا مما يدل على أن المؤثر واحد في الحالتين .

ومن خلال عرضنا لمظاهر الحضارة العربية في صقلية يتضح لنا أن العرب قد تركوا جهداً حضارياً عظيماً ، وان لم يحظ باهتمام المؤرخين حيث أن المصادر التي يرجع إليها في تصوير حضارة العرب في صقلية قليلة ، فلم يكشف منها إلا ما هو مبعثر في بطون الكتب [3] .

---

[1] الطيبي : دراسات في تاريخ صقلية الإسلامية ، ص 119 .
[2] حسان الحلاق : العلاقات الحضارية ، ص 124 ، و حسان عباس : العرب في صقلية ، ص 160 – 162 .
[3] سعيد عبد الفتاح عاشور : تاريخ اوروبا في العصور الوسطى ج1 ، القاهرة 1973 ، ص 487 – 488 .

الخاتمة

إن دولة الأغالبة قد جسدت مفهوم العلاقات بين الشرق و الغرب حيث فرضت سيطرتها على جزر البحر المتوسط وبخاصة صقلية وذلك نظراً لتفوقها بحريا في حوض البحر المتوسط و من ثم أصبحت صقلية احد معابر الحضارة العربية الإسلامية إلى أوروبا .

إن محاولات المسلمين لفتح صقلية منذ بداية الفتوحات الإسلامية يدل على أهميتها في حماية الأراضي العربية الإسلامية حيث كانت صقلية النقطة التي يهدد منها البيزنطيون المغرب الإسلامي .

إن الخلافات التي قامت بين بعض الأسر العربية على الحكم في صقلية و استنجاد احد أطراف هذا الصراع بالنورمان كان السبب في ضياع صقلية من أيدي العرب و إلى الأبد .

وكان للجهد الحضاري الذي خلفه العرب في صقلية أثره الواضح في حضارة أوروبا الحديثة .

فالحضارة العربية الإسلامية كانت من الركائز المهمة في نهضة أوروبا عن طريق منافذ كثيرة منها المعابر المشهورة الكبرى و هي الأندلس و صقلية و أخيرا بلاد الشام أثناء الحروب الصليبية في دورها الحاسم ما بين القرنين الحادي عشر و الثالث عشر في مرحلة العصور الوسطى .

المصادر

1 – ابن الأثير : أبو الحسن علي بن محمد

الكامل في التاريخ (القاهرة ، 1303) .

2 – ابن خلدون : أبو زيد عبد الرحمن بن محمد

المقدمة الجزء الثاني .

3 – ابن عذارى : أبو العباس احمد بن محمد

البيان و المغرب في أخبار المغرب ، المكتبة الصقلية .

4 – النويري : شهاب الدين أبى عبد الله احمد

نهاية الأرب في فنون الأدب ، المكتبة الصقلية .

المراجع

1 – أمين توفيق الطيبي :

- دراسات في تاريخ صقلية الإسلامية ، (دار الكتب الوطنية بنغازي 1990) .
- دراسات وبحوث في تاريخ المغرب و الأندلس (تونس 1989) .

2 – الجنجاني الحبيب :

القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية (تونس 1968) .

3 – حلاق حسان :

العلاقات الحضارية بين الشرق و الغرب في العصور الوسطى (بيروت 1986) .

4 – حسان عباس :

العرب في صقلية .

5 – رشيد الجميلي :

الحضارة العربية الإسلامية و أثرها في الحضارة الأوربية (منشورات جامعة قاريونس ، بدون تاريخ) .

6 – رمضان عبد العظيم :

الصراع بين العرب و أوروبا (دار المعارف ، بدون تاريخ) .

7 – سالم السيد (وآخرون) :

تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب و الأندلس ، دار النهضة العربية (بيروت 1969) .

8 – سعيد عبد الفتاح عاشور :

تاريخ أوروبا في العصور الوسطى الجزء الأول (القاهرة 1973) .

9 – غوستاف لوبون :

حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر دار إحياء الكتب العربية (القاهرة 1948) .

10 – محمد الطالبي :

الدولة الأغلبية – دار المغرب الإسلامي للنشر (بيروت 1985) .

11 – محمد صالح منصور :

- اثر العامل الديني في توجيه الحركة الصليبية ، منشورات جامعة قاريونس ، بنغازي 1996 .
- العلاقات بين المرابطين وملوك الطوائف ، منشورات جامعة قاريونس ، بنغازي 1995 .

12 – هونكه زيغريد :

شمس العرب تشرق على الغرب – ترجمة فؤاد حسين علي ، دار النهضة العربية (القاهرة بدون تاريخ) .